سفراء مغاربة إلى بريطانيا في مطلع القرن العشرين:
سفارة المهدي المنبهي 1901 والحسن بن محمد الغسال 1902
أنموذجا

الباحث أحمد مصلح
طالب باحث في سلك الدكتوراه
جامعة سيدي محمد بن عبد الله: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس – فاس

مقدمة

مارست الدول الأوربية خلال منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مجموعة من الضغوط على المغرب، بدأتها فرنسا بانتصار في معركة إيسلي سنة 1844 التي غيرت مجرى العلاقات المغربية الأوربية، وفتحت الأبواب على مصراعيها أمام التوغلات الأوربية[1].

أمام الهزائم العسكرية لم يجد المغرب بدا في معالجة مشاكله العالقة مع الدول الأوربية، من اتباع الخيار الدبلوماسي في وقت ازدادت فيه وتيرة الضغوط[2]. فعمل على إرسال سفراء إلى مجموعة من الدول الأوربية، خاصة بريطانيا، التي حافظت طيلة القرن التاسع عشر على علاقات دبلوماسية، يمكن القول أنها جيدة، تؤكدها الرسالة التي بعثتها الملكة فيكتوريا يوم الجمعة 16 ربيع الأول عام 1297ه الموافق 27 فبراير سنة 1880م إلى السلطان مولاي الحسن، تتضمن تقدير الملكة لشخصه، ووصفته بالسلطان الشريف المحترم المعظم، و أنها تقر لجانبه الشريف بخالص المحبة ودوامها[3].

استطاعت بريطانيا أن تجد لها حضورا قويا بالمغرب بفضل سياستها الهادئة، عكس بعض الدول الأوربية التي كانت تجنح للعنف كخيار لتحقيق الأهداف، ومرد ذلك حسب ما تبوح به التقارير القنصلية والتجارية، أن اهتمامها به كان لأسباب اقتصادية وتجارية بالدرجة الأولى[4].

فكانت بريطانيا من الدول التي يعتمد عليها المغرب في حلحلة بعض المشاكل الطارئة مع بعض الدول الأوربية، عبر إرسال سفراء. سنستعرض في هذه الدراسة لسفارتي المهدي المنبهي سنة 1901 ومحمد الغسال سنة 1902 إلى بريطانيا، وسنحاول التركيز على ظروف إرسال السفارتين والنتائج المحققة، فإلى أي حد حققت السفارتين وجهات نظر السلطان مولاي عبد العزيز؟

أولا: سفارة المهدي المنبهي[5] إلى بريطانيا سنة 1901

استبد بتفكير المسؤولين المغاربة خلال هذه الفترة التاريخية العديد من القضايا، أهمها قضية الواحات، حيث احتلت فرنسا منطقة توات، وفجيج[6].

يذكر عبد الرحمان ابن زيدان، أنه لما استولى الفرنسيون على توات، قرر السلطان مولاي عبد العزيز توجيه سفراء لعواصم أوربا لطلب النصير من الدول العظام[7].

لم يكن أمام المخزن خيار آخر، بالنظر إلى الوضع الداخلي الصعب، الذي كانت تعيشه

البلاد، وقوة فرنسا خلال هذه المرحلة، فالطرق الدبلوماسية شكلت السبيل الوحيد لاسترجاع المناطق المحتلة[8].

يرى المهدي المنبهي أن المغرب يجب أن يتوجه صوب إنجلترا، فهي دولة ملكية والمستعمرة لجبل طارق، باستطاعتها أن تقف في وجه الأطماع الفرنسية والإسبانية[9].

انتدب السلطان مولاي عبد العزيز 1894-1908 المهدي المنبهي سفيرا لإنجلترا في يونيو سنة 1901، ليقدم إلى الملك البريطاني إدوارد السابع التهاني بمناسبة جلوسه على العرش، وليحتج على احتلال الجيش الفرنسي لتوات، فضلا عن مطالبته بالدعم ضد فرنسا[10].

ورافقه في هذه البعثة باشا الرباط عبد الرحمان بركاش بصفته مستشارا والزبير السيكرج بصفته ترجمانا، بالإضافة إلى الكاتب محمد بوستى[11] .

إن سفر المهدي المنبهي إلى لندن في هذا الوقت من تاريخ المغرب (1901) يعتبر خطوة جريئة لم ترضى عنها فرنسا، وفي الوقت نفسه خطوة شجاعة أثارت إعجاب المغاربة[12].

وصل المنبهي بحرا إلى مرسى بليموث في 22 يونيو سنة 1901، ليتجها إلى لندن على متن قطارخاص[13].

حضي المنبهي باستقبال رسمي عند حلوله بلندن، في هذا الصدد، يقول المشرفي " ... وقابلوه بالبشاشة والترحيب وأنزلوه بروض خصب، وأتحفوه بخواص مخترعاتها وجال في بهائها ورياضها..."[14].

بعد يومين من الاستراحة، اجتمع مع وزير الخارجية البريطاني لانزدوون في مقر وزارة الخارجية، دار الحوارحول فكرة إدخال مجموعة من الإصلاحات على بعض المجالات بالمغرب، وحسب ماهو وارد في مذكرة وقعها المنبهي، اتفق الطرفان البريطاني والمغربي على تحقيق برنامج إصلاحي يتمحور حول القضايا التالية:

أ- تحسين الطرق وبناء القناطر: إلتزم المنبهي بأن يستغل أول فرصة تتاح أمامه بعد العودة إلى المغرب، ليتخد تدابير كفيلة بتحسين أحوال الطرق البرية وبناء القناطر، لكنه اشترط أن يتحقق إنجاز ذلك وفقا لوجهات نظر المخزن.

ب- مد خطوط التلغراف بين مختلف أرجاء المغرب.

ج- تسهيل تسويق المواد الغذائية بين مراسي المغرب، ويلتزم المغرب بعدم عرقلة شحن المواد الغذائية من مرسى إلى أخرى، والسماح بنقل جميع أنواع الحبوب والخضر

والفواكه والطيور الداجنة والبيض من أي مرسى مغربي إلى أخر دون أداء الرسوم[15].

د.تحسين أحوال المراسي ودور الجمارك، وذلك بتوسيع مخازن ووإدخال تحسينات عليها عند الضرورة.[16]

إننا هنا أمام سابقة في تاريخ المغرب، حيث يقدم فيها مبعوث مغربي، ذهب في مهمة سفارية إلى الديار الأوربية على تقديم تنازلات لصالح الدول الأجنبية في عاصمتها، وقد جرت العادة كما هو معلوم خلال القرن التاسع عشر، أن يتحمل ممثلوا الدول الأوربية عناء السفر لزيارة السلطان والمكوث أيام عديدة لإجراء المباحثات الصعبة مع المغرب[17] وخير مثال معاهدة 1856، التي وقعت بعد مفاوضات شاقة[18].

وبعد أيام قليلة من توقيع الجانبين على هذه المذكرة، استقبل الملك البريطاني إدوارد السابع وعقيلته ألكسندر المبعوث المغربي في قاعة العرش، بحضور القائد ماكلين ونيكولسن بالإضافة إلى ساندراس، الذي كان ينوب عن وزير الخارجية البريطاني لانزدوون

وشخصيات أخرى من ديوان العاهل البريطاني وحكومته، وتلا المنبهي رسالة على الحاضرين، ثم جلس على يمين إدوارد السابع، الذي سلم للمنبهي رسالة خاصة يسلمها للسلطان مولاي عبد العزيز ووشحه بوسام رفيع[19].

وبعد هذا اللقاء مع الملك البريطاني، وسلسلة المباحثات مع وزير الخارجية البريطاني لانزدون، هل من حل يرضي الطرف المغربي في قضية الحدود، مع الطرف الآخر الجزائري(الفرنسي)، بمعنى هل حققت بعثة المهدي المنبهي نتائج ملموسة لصالح المغرب؟

دام مقام السفارة المغربية بلندن حوالي شهر[20]، دارت عدة مباحثات مع وزير الخارجية البريطاني لانزدوون بحضور نيكلسون، وفي 27 يونيو سنة 1901 حدد مجلس الوزراء موقف بريطانيا من القضية، وهو كالآتي:

السعي للحفاظ على الوضع الراهن أطول مدة ممكنة، وتشجيع المغرب على إصلاح إدارته والانفتاح على التجارة الأوربية، وقد تهرب لنزدوون من أي التزام سياسي موجه ضد فرنسا، ونصح ممثل السلطان بالاتفاق معها لتثبيت الحدود الجزائرية المغربية[21].

اغتنمت البعثة وجودها بلندن، فاقتنى المنبهي من شركات خاصة، أربعة بنادق من صنف لي متيفور حديثة الصنع، وبعض معدات السقي والإنارة، ومشتريات متنوعة، كما اتخذ إجراءات للتعاقد مع ستة عشر إطارا بريطانيا في تخصصات هندسية وحرفية مختلفة[22].

لم تحقق سفارة المنبهي أي نتيجة تذكر، بل إن التنازلات التي قدمها السفير للسلطات البريطانية أثارت حفيظة السلطان مولاي عبد العزيز، الذي أصدر أمره لعامل مرسى الجديدة بالقبض عليه مجرد نزوله من البحر[23]، لكنه تمكن من مغادرة الجديدة في اتجاه مراكش على وجه السرعة في الصباح الباكرمن يوم السبت 17 يوليوز سنة 1901 ويحتمل وصوله إليها في صباح يوم الإثنين[24].

تدخلت بريطانيا في القضية، معلنة مساندتها للمنبهي، كونه أحد محمييها، ومسؤولة عنه أمام الاتهامات المخزنية، حيث أكد القنصل البريطاني بمراكش، أن المنبهي يستحق جميع الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها كل من هو في حماية بريطانيا، استنادا إلى ما ورد في شروط الحماية، مؤكدا أن اتهام المنبهي باختلاسه الأموال العمومية لا أساس له من الصحة مدعيا أن المخزن أراد معاقبته ليس إلا، مطالبا رفع القضية لمجلس القنصلية البريطانية مرفوقة بالحجج الدامغة، التي تؤكد تورط المنبهي، الذي من حقه اللجوء إلى القانون البريطاني[25].

وفي القضية، شهادة من الطيب بن اليماني بوعشرين، الذي صرح:"...لما أكل الأكلة التي لاتسلم له سبق إلى موالاة النصارى، واتخذ عندهم اليد، ليناضلوا عنه... "[26].

من المثير للاستغراب حقا، أن نجد مثل هذه الخلافات، التي تؤزم الوضع أكثر وتعطي الفرصة للطرف المتربص من أجل التدخل، الأمر الذي يؤكد على وجود خلل بنيوي داخل المنظومة المخزنية خلال هذه الفترة، فعوض الاهتمام بالقضايا الجوهرية للبلاد، نجدهم ينساقون وراء المصالح الشخصية.

ثانيا: سفارة الحسن بن محمد الغسال[27] سنة 1902

تمت هذه السفارة في ظروف حرجة كان يمر منها المغرب، نتيجة ثورة الروكي بوحمارة، الذي خلق قاعدة شعبية، بادعائه أنه أخ السلطان مولاي عبد العزيز، والابن الأكبر للسلطان مولاي الحسن.[28]

رغم هذا المستجد الخطير، فإن ذلك لم يشغل السلطان مولاي عبد العزيز عن الاستمرار في الحفاظ على علاقات جيدة مع إنجلترا، تأكيدا منه على روح الصداقة التي تجمع بين البلدين، وبمناسبة تولي الملك البريطاني إدوارد السابع عرش المملكة البريطانية، أوفد سفارة تتألف من القائد عبد الرحمان بن عبد الصادق، ممثلا له في مراسيم التتويج، والحسن الغسال كاتبا ومرافقا له[29].

انطلقت السفارة صبيحة يوم السبت 21 يونيو سنة 1902 من طنجة على متن المركب الحربي الأنجليزي "رويان صفرن"، وبعد ساعتين ونصف أرسى المركب بمرسى جبل طارق، حظيت البعثة المغربية باستقبال جيد من طرف حاكم الجبل "سجورت ويط" ووكيل السلطان الطالب عبد السلام بوزيان، وقائد المرسى، وجماعة من الكبراء[30].

بعد ذلك توجهت السفارة على متن أحد المراكب التابعة لشركة النقل أبسلار لتصل إلى أول مرسى من مراسي إنجلترا المسماة "بابليس"، وهي مرسى حربية، تحتوي على عدد من المراكب، وكان في استقبالهم رئيس المدرعة بلباسه الرسمي، وبعد ساعات من الاستراحة، توجهت البعثة صوب العاصمة لندن، التي وصلتها يوم الجمعة 27 يونيو سنة 1902 على الساعة الثالثة مساء3.

سبق أن ذكرنا، أن سبب سفارة الحسن الغسال إلى إنجلترا، هو تهنئة إدوارد السابع باعتلائه عرش المملكة البريطانية، الأمر الذي أتاح لنا فرصة الحديث عن رؤية الغسال لدولة بريطانيا وشعبها.

قدم لنا الكاتب الحسن الغسال معلومات عن الشعب البريطاني خلال هذه الفترة وخاصة سكان العاصمة لندن، وبعض عادات أهلها، قبل ذلك نجده يبدي إعجابه على غرار السفراء المغاربة بمدينة لندن: "...وبالجملة فقد انفردت (اللندرة) على مدن المعمور بشدة الحركات في أسفار البحار، وقدر عدد سكانها على قدر ما يحررونه في هذا التاريخ ما يقارب عن ستة ملايين نسمة... "[31].

قام أعضاء السفارة المغربية بزيارة قصر الملك المسمى "سيرجيمس بلاس"، من أجل رؤية هيئة العساكر، التي وصفها الغسال قائلا: "... فإذا هي في غاية من النظام العسكري مرونقة اللباس في زي مخصوص بها تمييزا عن غيرها من سائر العساكر..."[32].

إن أهم ما أثار السفير الحسن الغسال، هو مركز أشغال التجارة الكبرى، وقد جاء وصفه بالطريقة التالية: "... وهو طريق عظيم به ديار ومخازن وحوانيت السلع، ومن جملة ما بهذا المركز داربنكة المخزن..."[33].

اهتم الغسال مند أن حل بإنجلترا، بعدد من القضايا الجديرة بالاهتمام والتنويه نذكر على سبيل المثال ما جاء في معرض وصفه للمؤسسة الحكومية البريطانية، التي سماها بالديوان الاجتماعي الرسمي، ووصفها بإسهاب، ولعل تسميته للبرلمان بالمجلس الاجتماعي ينم عن إدراك قوي لطبيعة هذه المؤسسة الديمقراطية الاجتماعية، التي تسهر على مصالح الشعب البريطاني، يحضرها نائب عن كل إيالة أو عمالة وكيلا عنها في جميع مصالحها ودفع مضارها[34].

بعد ذلك وصف سير الأعمال بدار مجلس نواب الأمة، التي تضم فرقتين: فرقة في جانب المخزن، وفرقة تسمى بحزب الأحرار، ثم رئيس المجلس المتميز بقلنسوته البيضاء وفي كل قضية تعرض أمام المجلس يحضر الوزير الذي يعنيه الأمر، فإذا كانت من قبيل أشغال الداخلية يحضرها وزيرها، وإن كانت من قبيل أشغال الخارجية، فيحضرها وزيرها[35].

وغير خاف أن الحافز الذي يقف من وراء تسجيل المغربي لمظاهر التطور في سلطة الأوروبيين، نابع من إعجابه بهذه المؤسسات، التي تضمن أمن المواطنين ومصالحهم.

وصفوة القول، أن السفارتين لم تحقق المبتغى المنشود، فبريطانيا لم تتمكن من وقف التحرشات الفرنسية بالأراضي المغربية، فلم تستطع إصدار أي قرار سياسي يدين فرنسا، بل تعاملت بدبلوماسية مع السفارة المغربية، مراعاة لمصلحة فرنسا في المنطقة.

لم تكن السفارتين المغربيتين، خاصة سفارة المنبهي لتحقق المصالح المغربية، بالنظر إلى الوضعية السياسية الصعبة التي كانت تعيشها البلاد في بداية القرن العشرين، وقوة فرنسا خلال هذه الفترة التاريخية، فكانت السفارة وسيلة دبلوماسية لإجبار فرنسا على قبول الحل الودي، لكن لم تكن لتقدم تنازلات وهي في موقف قوة، فكان المغرب مجبرا بعد سلسلة من الضربات العسكرية والاقتصادية التي تلقاه خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على الرضوخ لأمر الواقع.

الهوامش:

[1] – بوزويتة سمير، مكرالصورة المغرب في الكتابات الفرنسية 1832–1912، إفريقيا الشرق 2007، ص.34.

[2] – بناني لطيفة سيميرس، المعاهدات اللامتكافئة في القرن التاسع عشر المغرب نموذجا، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية – فاس، العدد 10، 1989، من ص. 157 إلى 174.

[3]– رسالة من الملكة البريطانية فيكتوريا إلى السلطان مولاي الحسن، تتضمن إرسال سفير إلى السلطان بغرض تحقيق المحبة بين البلدين، منواغرافية الصويرة، الترتيب الخاص، المحفظة 4، 1297–1302/1868–COTE: Th-2211883، مديرية الوثائق الملكية بالرباط.

1

1 -Ben Srhir-Khalid, Great Britain's opposition to the American Policy Towards Morocco during the Second Half of the Nineteenth *Century.The Atlantic Connection*, Edision press 1990 p. 79.

[5] – شن بوعشرين بن الطيب اليماني هجمة شرسة عليه، بقوله"...وهو رجل أمي بدوي لامسيس له بالسياسة، ولا بأمور المملكة، وبسببه انحطت المملكة عن قدرها الرفيع ،إنهار سدها المنيع، ولحقها من الضيم والهضم ما لايفي شرحه بأقلام وسلبها من أموالها، وسعى في إيقاذ نارفتنتها وأهوالها، وعرف الناس بقدره الخسيس، وشؤمه المكتسب من إبليس..." ويقول أيضا"... ولما علم أنه إمتلأ بالمال الذي لايحصى والذخائر التي لا تستقصى، دبر حيلة مشاها على الدولة، ومشى سفيرا من جانب الدولة إلى إنجلترا والألمان، وأودع ماله عندهم، وفعل الأفاعيل العجيبة هناك، وارتكب الخرق الفادح..." بوعشرين بن الطيب اليماني، التنبيه المغرب عما عليه الأن حال المغرب،السفرالأول، تقديم وتصحيح محمد المنوني، دار النشر المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1994، صص.62–63–65. لكن، نجد رأيا مخالفا لرأي بوعشرين، فقد تحدث السليماني عن المنبهي قائلا، "...وإن كان هذا الخلق شهما شجاعا كريما عربيا، فإن معلوماته في العلم والسياسة قليلة أومنعدمة. السليماني أبو عبد الله، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمنية–الرباط، الطبعة الأولى 1971، ص.143.

[6] – المنوني محمد،« "البدايات الأولى لليقظة المغربية على مستوى الإصلاحات الكبرى» ، المناهل، العدد 12، السنة 1978 من ص. 308 إلى ص. 322.

2

[7] – ابن زايدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، الجزء الأول، الطبعة الثانية، الرباط، ص. ص. 396.

[8] – المنوني محمد،≥ البدايات الأولى لليقظة المغربية ...≤ م، س، صص. 308–322.

[9] – الروندة صديق، الوزيرالشاهد على بداية الأزمة المغربية، مطبعة المغرب –الرباط 2006، ص. 22

[10] – نفسه، ص. 23.

[11] – ابن زيدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس...م، س، الجزء الأول، ص. 396.

[12] – بن جلون عبد المجيد، جولات في تاريخ الأمس 1901، نشر وتوزيع مكتبة المعارف –الرباط ص. 87.

3

[13] – بن الصغيرخالد، بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب 1886–1904، منشورات كلية الآداب محمد الخامس سلسلة رسائل وأطروحات رقم 62، الطبعة الثانية ،2011، ص. 506.

[14] – المشرفي محمد، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية 2005 ، ص. 360.

4

[15] – بن الصغير خالد، بريطانيا وإشكالية الإصلاح... م، س، ص. 507.

[16] – نفسه

[17] – نفسه

[18] – بن الصغير خالد، المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر 1856–1886، الشركة المغربية للنشر ولادة، مطبعة فضالة–المحمدية 1999، صص106–108.

[19] – بن الصغيرخالد، بريطانيا وإشكالية الإصلاح... م، س، ص.508.

5

[20] – ابن زايدان عبد الرحمان، إتحاف أعلام الناس... م، س، الجزء الأول، ص. 396.

2-Pierre Guillèn, L'*Allemagne et le Maroc de* 1870 *à 1905*, p.u.f.1er édition 1967, p.598

[22] – بن الصغيرخالد، بريطانيا وإشكالية الإصلاح... م، س، ص.511 .

[23] – نفسه.

[24] – هذا ما أخبربه القائد ماكلين نيكولسن، ينظربن الصغير خالد، بريطانيا وإشكالية الإصلاح... م، س، ص.518.

6

[25] – المحفظة 46، الوثيقة 117، الخزانة العامة بتطوان، محافظ الطريس.

[26] – بوعشرين بن اليماني الطيب، التنبيه المعرب عما عليه... م س، ص.65.

[27] – ولد بمدينة طنجة سنة 1866، ينحدر من أسرة انتمت إلى السلطة المخزنية، استطاع الغسال ممارسة نشاط دبلوماسي واسع، وأهم المحطات البارزة في حياته: أ–حضوره مؤتمر المندوبين بالدار البيضاء، بغية إيجاد حل للمطالب الأوربية الصاعدة.د– تعيينه ضمن وفد طنجي، إختاره السلطان مولاي عبد العزيز في مجلس الأعيان، لمحاورة السفير الفرنسي وبرنامجه المقترح لإنجازإصلاحات تحديثية معينة لأهداف واضحة. الحسن بن محمد الغسال، الرحلة التتويجية إلى عاصمة البلاد الإنجليزية 1902، تحقيق وتقديم عبد الرحيم المودن، دار السويد للنشر والتوزيع–الإمارات، الطبعة الأولى2003، صص.11–12.

4 -Leonhard Karow, N*euf années au service du Maroc (1900*-1908), Traduction et notes Monique Miège et Jean- Louis Miège, Editions La porte- Rabat1998, p.62

7

1- الغسال بن محمد الحسن، الرحلة التتويجة... م، س، ص. 39.

2- نفسه، ص. 43.

3- نفسه، ص. 47.

8

[31] – الغسال بن محمد الغسال، الرحلة التتويجية... م، س، ص. 47.

[32] – نفسه.

[33] – نفسه.

[34] – نفسه.

9

[35] – الغسال بن محمد الغسال، الرحلة التتويجية... م، س، ص. 48.

10